حول خطاب الجماعات المسيحية في زمن المحنة

عندما طلب مني الاب الرئيس سليم دكاش المشاركة في هذه الندوة ، استوقفتني اشكالية في العنوان المقرر ، وهو "خطاب الجماعات المسيحية في زمن الأزمات".
الإشكالية تدور حول عبارة "الجماعات المسيحية" . أعرف ان هناك كنائس مسيحية متعددة . ولكن الا يشكل اتباع هذه الكنائس جماعة مسيحية واحدة حتى في زمن الأزمة؟
أطرح هذه الإشكالية لأنها تقع في اساس الموضوع الذي سأتناوله فيما بعد .
اعرف ان هناك تلازماً بين المسيحية والأزمة . وأعرف ان المسيحية انتصرت على ما واجهته من أزمات ومحن ، منذ اشراقاتها الأولى حتى اليوم .. من الامبراطور الروماني نيرون الذي حكم على القديس بطرس بالموت صلباً ورأسه الى الأسفل، الى الامبراطور قسطنطين الذي اعتنق المسيحية وجعلها دين الدولة ورأسه الى الأعلى .
ومنذ ان آمنت المسيحية بالمحبة ودعت اليها ، وجدت فيها –وجعلت منها- خطاباً لفتح أبواب الأزمات المغلقة . هكذا حدث في المجمع الفاتيكاني الثاني الذي قدم خطاباً طوى صفحات أزمات عديدة : أزمة الكرسي الرسولي مع متغيرات العصر ، وأزمة العلاقات مع الكنائس الأخرى وأزمة الموقف من اليهودية والاسلام .
مهما يكن من أمر ، فان هذه الاشكالية تطرح في هذا الوقت بالذات ، السؤال الكبير : أين مجلس كنائس الشرق الأوسط مما يواجهه المسيحيون اليوم من تحديات ؟ وأي خطاب تفتقده الأزمة الحالية والذي كان ينتظر ان يصدر عنه ؟.
اذا كان البدر يفتقد في الليلة الظلماء ، فان المجلس يفتقد في ليالي التحديات التي تكاد تتحول الى محن .. والتي يواجهها مسيحيو الشرق منفردين أحياناً ، ومع المسلمين أحياناً أخرى .

بوجود المجلس كنا كمسلمين نبحث في خطاب الجماعة المسيحية . وبغيابه أصبحنا نبحث عن خطاب أو عن خطب الجماعات المسيحية . من هذه الجماعات مثلاً الجماعة المسيحية في فلسطين وفي القدس خاصة والتي تواجه محنة الاحتلال الاسرائيلي .

فقد واجهت الكنائس المتعددة هذه المحنة بخطاب موحد من خلال وثيقة "كلمة حق" (كايروس) . وفي هذا الخطاب قالت المسيحية بصورة مباشرة للاسرائيليين ان وجودكم احتلالي . وقالت للكنائس في العالم ان الاحتلال والإيمان المسيحي لا يجتمعان . وقالت للمسلمين بصورة واضحة ومباشرة ان تحرير الارض والمقدسات ليس شأناً اسلامياً فقط، ولكنه شأن مسيحي أيضاً . وقالت للعالم كله ان السكوت عن الاحتلال الاستيطاني يتناقض مع كل القيم الانسانية والمواثيق الدولية .

هذا خطاب مسيحي في زمن محنة . دوى عالياً ، ولكن من هم الذين استجابوا له ؟ أو استمعوا له ؟ أو سمعوا به ؟ كأن في اذانهم وقراً . ليست الأزمة في مجرّد التعرض لحالة خطيرة .. ولكن الأزمة تكون عندما تُختلَق مبررات استمرارها وتعميقها ، وعندما تسد المخارج للتخلص منها . وهي تتحول بذلك الى محنة .

ان ما تعرض له مسيحيو العراق يشكل مثلاً على ذلك . فهم لم يطلبوا الاجتياح الأميركي. ولم يستقووا به . بل كانوا من ضحاياه وطنياً ودينياً أيضاً . فقد هرولت حركات التبشير الانجيلية الاميركية من خلف الدبابات العسكرية حاملة الانجيل المقدس ملفوفاً بالمساعدات الانسانية الى كنائس الأشوريين والكلدان الكاثوليك والأرثوذكس ، وكأنهم لم يعرفوا المسيحية من قبل ، وكأنهم يسمعون بإسم السيد المسيح للمرة الأولى، وهم في الواقع من الجماعات المسيحية الأولى . مع ذلك أُحرق بعض كنائسهم ، ودُمر بعض قراهم ، وهجروا جماعات ووحداناً من منازلهم على أيدي بعض شركاء لهم في الوطن .. ولكن لا وطنهم استطاع – في أزمته الداخلية- أن يوفر لهم الرعاية والحماية في زمن المحنة ، ولا هم طلبوها من القوات الأميركية. فوقعوا بين مطرقة الاجتياح وسندان التطرف ، مما سد في وجوههم أبواب الخروج من الأزمة .. فكان خطابهم

الهجرة .. وهو خطاب يحمل معنييْن في وقت واحد . المعنى المباشر والبسيط هو الدفاع السلبي عن النفس بمعنى الانكفاء وطلب السلامة الذاتية .

اما المعنى الثاني المباشر والأعمق فهو اتهام الآخرين من مواطنيهم ، بأنهم لا يعملون بما يؤمنون . وانهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

ان من شأن هذا الخطاب المدوي بصمته ، ان ينقل الى العالم رسالة ذات مضمون سلبي عن هؤلاء المواطنين الآخرين وحتى عن عقيدتهم .

كثيراً ما يتردد ان المحنة في العراق لم تكن مسيحية فقط . وان الضحايا المسلمين من السنة والشيعة ، ومن العرب والأكراد والتركمان ، اكثر عدداً بما لا يقاس . وهذا صحيح بالطبع . ولكن المسيحيين في العراق لم يكونوا جزءاً من الصراع السياسي أو من التنافس على السلطة .

وكثيراً ما تردد أيضاً ، ان محنة المسيحيين في العراق كانت استثناء في الشرق. حسناً ، ولكن ماذا عن محنة الأقباط في مصر وإن ووجهت بالاستنكار الجماعي؟ وماذا عن معاناة المسيحيين في سوريا وإن كانت تجابَه بالإنكار الجماعي ؟. وماذا عن قفز حركات الاسلام السياسي الى مقاعد السلطة في مصر وتونس وليبيا ؟ وماذا عن الشعارات التي ترفعها هذه الحركات والتي توحي وكأن التعدد الديني غير موجود في المنطقة ؟.

يعيش العالم العربي حركات اعتراض واحتجاج وتغيير واسعة النطاق . ولكن ليس كل تغيير ربيعاً . وفي أمثالنا العامة ان وردة لا تصنع ربيعاً . مع ذلك تفتّح الكثير من الورد من تونس الى مصر ، ومن ليبيا الى اليمن ، ومن المغرب الى سلطنة عمان .. ولكن انتصب في الوقت ذاته الكثير من الشوك . يتمتع برائحة الورد الذين لم يزرعوه . وتدمي الأشواك أصابع الزارعين . نعرف أن لا ورود من دون أشواك .. ونعرف ان الأشواك تصلب عوداً عندما تذبل الورود أو تتساقط قبل أوانها . ونعرف كذلك ان الورد الذي نعشقه ونتوق الى عطره يتمثل في سقوط الاستبداد السياسي . ونعرف أيضاً ان الشوك

الذي يدمي أيادينا يتمثل في احتكار الحقيقة ومصادرة الرأي ، وأن أكثر الأشواك إيلاماً تكمن في استبدال الاستبداد الديني بالاستبداد السياسي . والاستبداد الديني هو كظلم ذوي القربى ،" اشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند" ، على حد قول الشاعر طرفة بن العبد .

يشكل احتمال وقوع هذا الانتقال من الاستبداد السياسي الى الاستبداد الديني أزمة مسيحية تحتاج تالياً الى خطاب مسيحي . وذلك لأن الاستبداد الديني يضرب أول ما يضرب أسس وقواعد الحرية الدينية . غير ان هذه الأزمة في جوهرها ، هي أزمة وطنية اسلامية – مسيحية تحتاج الى خطاب وطني اسلامي - مسيحي . وذلك لأن الاستبداد أعمى . ولأن الحرية كلٌّ لا يتجزأ. فالاستبداد سيء كله . وهو أكثر ما يكون سوءاً عندما يكون دينياً. يمكن التصدي لشر الاستبداد السياسي بعمل ما ، بموقف ، برأي، بكلمة ، أو حتى بنكتة تهكمية . ولكن كيف يمكن التصدي لاستبداد يمارس باسم الله ؟ ان الاستبداد الديني ، او الاستبداد الذي تمارسه سلطة دينية ، لا ينتهك الكرامة الانسانية وحقوق المواطن فقط ، ولكنه فوق ذلك يقوّل الذات الإلهية ما لم تقله ، ويحكم بما لم تأمر به ، ويسيء الى من أحسنت اليه .

من هنا ، عندما تواجه الحريات أي محنة من هذا النوع ، لا بد من خطاب مشترك يدافع عنها ، لا تمليه فقط المواطنة ووحدة المصير ، ولكن تمليه أيضاً العلاقة الإيمانية بين المسلمين والمسيحيين ، والتي حدد القرآن الكريم أسسها في بعض آياته ، والتي ترجمها رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام في سلوكه، وبصورة خاصة في عهده الى نصارى نجران .

واليوم ، يعاني مسيحيو الشرق من الشعور بأن ثمة موجة صاخبة من التطرف الديني الاسلامي . وان هذه الموجة تستهدفهم . ان التطرف يفجر أكثر من أزمة . انه يصنع محنة . ومع هذه المعاناة ، يعاني مسلمو الشرق من الشعور بأن مسيحيي الشرق غير مقتنعين بأن هذه المحنة تستهدفهم معهم أيضاً ، وانها بالتالي محنة مشتركة اخرى تتطلب خطاباً مشتركاً وموقفاً مشتركاً. وفي هذه الحال فإن اللاموقف ليس موقفاً .

من هنا ، اذا كانت هناك أزمات مسيحية تتطلب خطاباً مسيحياً ، فان هناك أزمات مسيحية اخرى تتطلب خطاباً اسلامياً ، وهناك أزمات مسيحية تتطلب خطاباً اسلامياً – مسيحياً . ان أزمة الهجرة المسيحية الواسعة من العديد من دول العالم العربي مثلاً تُلقي على المسلمين مسؤولية مواجهتها والتصدي لها لأنهم سيكونون الخاسرين الكبار من تداعياتها السلبية ...

لا تقتصر خسارتهم على تفكيك نسيج المجتعات العربية وربما تفكيك دولها أيضاً ، كما لا تقتصر على فقدان هذه المجتمعات لثروة لا تعوض من الكفاءات الفكرية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية والوطنية ، ولكنها اضافة الى ذلك كله ، تشكل –الهجرة المسيحية - مضبطة اتهام للاسلام بأنه يرفض الآخر وانه لا يقبل التعايش مع غيره .

وهو اتهام غير صحيح يشوه العقيدة الاسلامية ، ويعرّض المسلمين للمعاملة بالمثل في الدول الأجنبية التي استوطنوا فيها. لذلك ليست أزمة الهجرة المسيحية شأناً مسيحياً فقط، ولكنها شأن اسلامي أيضاً يتطلب خطاباً اسلامياً . وهي شأن اسلامي – مسيحي كذلك يتطلب خطاباً اسلامياً - مسيحياً مشتركاً .

فالهجرة ليست حلاً . انها أزمة في حد ذاتها . في الهجرة أمن وهمي . والأمن الوهمي هو أسوأ أنواع الاطمئنان . فهي انسحاب من المشترك في الحياة العامة ؛ واستسلام لحركة التطرف الاحتكارية للحق وللحقيقة والإلغائية لكل من هو مختلف معها . انها تخلٍ عن المسؤولية الوطنية في التصدي للأزمات ، وهي خروج من الوطني العام وتقوقع في الذات الخاص . مما يتناقض مع جوهر المسيحية ومع دورها الذي تميزت بادائه في المشرق على مدى التاريخ .

لا شك في ان أخطر الأزمات وأشدها خطراً هي التي تتناول حرية ممارسة العقيدة وحرية التعبير عن الإيمان . تتطلب هذه الأزمة خطابا من نوع آخر نقرأ خطوطه العريضة في وثيقة الارشاد الرسولي حول الشرق الأوسط التي وقّعها قداسة البابا بنيدكتوس السادس عشر في لبنان في ١٤ أيلول ٢٠١٢ الماضي.

فالوثيقة تؤكد على مبدأ الحريات الفردية والجماعية ، وتطعن بصيغة التسامح اساساً للعيش الوطني ، استكمالاً لرفضها أن يكون المسيحي مواطناً من الدرجة الثانية . وتقول الوثيقة بالمواطنة من حيث هي مساواة في الحقوق والواجبات . وهذا الخطاب قال به قبل ذلك الأزهر الشريف أيضاً في الوثائق الثلاث التي أعلنها ، حيث أكد على انه لا دولة دينية في الاسلام. لم يكن هذا القول بدعة جديدة ، ولكنه تاكيد لما يقول به الاسلام ودعوة تجديدية للإلتزام به.

ان مجتمعاتنا العربية هي مجتمعات متنوعة . وفي المجتمع المتنوع يكون الوجود الذاتي جزء من الوجود المشترك . ويكون الحق الذاتي جزء من الحق المشترك . ويكون الأمن الذاتي جزء من الأمن المشترك . ولذلك يتجسد الاختلاف في التنوع . ويتجسد التنوع في الوحدة .

لقد كشف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين عن ظاهرتين هامتين ؛ تتمثل الظاهرة الأولى في استعادة الدين لدروه المؤثر في الحياة العامة . ان ٨٤ بالمائة من البشرية التي يبلغ عددها سبعة مليارات انسان ، اي ما مجموعه ٦ مليارات انسان ، ينتمون الى دين أو الى عقيدة معينة .

يشكل المسيحيون منهم ٣١،٥ بالمائة ، أي ما مجموعه مليارين و٢٠٠ مليوناً . ولكن ثلثي هؤلاء المسيحيين يعيشون في دول العالم الثالث : أميركا اللاتينية وفي آسيا وافريقيا حيث يستوطن الاسلام . وكان ثمانون بالمائة منهم حتى القرن التاسع عشر يعيشون في أميركا وأوروبة . وهذا يعني ان المسيحية تتمدد جنوباً .. والعالم العربي هو جزء من هذا الجنوب الذي يشهد مع الأسف هجرة مسيحية واسعة . وهنا موقع الأزمة - المحنة .

اما المسلمون فيشكلون ٢٣،٢ بالمائة من شعوب العالم ، اي ما مجموعه مليار و٦٠٠ مليون انسان . يعيش ثلثهم في دول وفي مجتمعات غير اسلامية . فكيف تتعامل هذه الدول والمجتمعات مع هؤلاء المسلمين اذا وصمتهم الهجرة المسيحية برفض الآخر المسيحي؟.

اما الظاهرة الثانية التي كشف عنها العقد الأول من هذا القرن ، فتتمثل في تقدم الدين وتراجع الإيمان . فهناك الكثير من التدين والقليل من الايمان ، الكثير من التعصب والقليل من الروحانية . وهذه ظاهرة تضعنا جميعاً، مسلمين ومسيحيين بصورة خاصة ، أمام أزمة مشتركة تتطلب خطاباًًًًًًًًًًًًًًًًً جديداً ومشتركاً أيضاً . ومن هنا السؤال : هل من خطاب يمكن اعتماده لمواجهة هذه الأزمة - المحنة أفضل وأفعل من خطاب الحوار والتلاقي وبناء جسور التفاهم والثقة .. وصولاً الى المحبة ؟ .

.. لقد دلت التجربة الانسانية على انه لا خطاب أقوى من ضعف خطاب المحبة .

محمد السماك